وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

المظاهر البديعية وأثرها الأسلوبي في التعبير القرآني

(القسم الأول)

رسالة تقدمت بها الطالبة

هدى صيهود زرزور العمري

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالى
وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني

1434هـ 2013م

أولاً : مَفْهُومُ التناسبِ : القيمة والمُعَادِل الموضوعي :

تفرض قضية تحرير المصطلح سلطتها العلمية على الباحث والناقد، وصولاً إلى فهمٍ جامِعٍ محدّد يرصدُ به مديات التشابه والاختلاف في المفاهيم، ومن ثم المناقشة المنطقية التي تُسفر عن نتائج دقيقة يتوخاها البحث.

فمفهوم التناسب من المفاهيم العربية النقدية القديمة، التي تجمع على رَصدِ آلياتِ الترابط والانسجام العضوي والموضوعي بين أجزاء النظم القرآني، والكشف عن ميادين إعجازهِ وبيانهِ، وفقاً لإجراءاتٍ تجميعية تتحدّد من خلالها طبيعةُ المصطلح ووظيفتُهُ وكيفية التعامل مع مستوياته وأنماطه، ومحدداتٍ تفرضها طبيعة اللغة وخصوصية الظاهرة البلاغية المدروسة.

إن الحديث عن مفهوم التناسب القرآني والاستدلال بمظاهرهِ على بديع النظمِ بوصفهِ ((علمٌ دقيقٌ يعتمدُ على العقلية ذات التفكير الكلي))[1]، من الأمور البالغة الأهمية، التي تتطلبُ إعمالاً للفكرِ، وغوصاً في تدبر دقائق أسرارهِ، تأكيداً على ضرورة التعامل مع القرآن الكريم بوصفه وحدة واحدة متماسكة الأجزاء.

فالمناسبة في اللغة تُحيل على معنى المشاكلة أي : المشابهةِ والمماثلةِ والموافقةِ[2]، ((والتشابه لا يتم إلاَّ بوجود أمرٍ رابطٍ بين الشيئين أو يقارب بينهما))[3]، وهذا يؤكد مفهومه الاصطلاحي الدال على معرفةِ علل ترتيب أجزاء القرآن وعرضها على العقول بما يُلاقى بالقبول، غير متكلفة ولا مصطنعة[4]، حتى تكون اجزاؤهُ كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني[5]، بمعنى أن التناسب الذي يقصده البحث قائم على أساسِ إيجادِ علاقاتٍ ترابطية منطقية تجمعُ مظاهر الجمال في

(□) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن : 43.

(□) ينظر : مادة (نَسَبَ) في : معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب، والقاموس المحيط، وتاج العروس، والمعجم الوسيط.

(□) علم المناسابات وأهميته في تفسير القرآن : 6.

(□) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 1 / 35، نظم الدرر : 1 / 7.

(□) هذا حدُّ التناسب عند القاضي أبي بكر بن العربي (ت 468 – 543هـ)، وهو : محمد بن عبد الله المعافري، الأندلسي، أبوه من فقهاء اشبيلية، سمع من علماء بغداد، والتقى بأبي حامد الغزالي بالشام ثم عادَ إلى المغرب وتوفي بفاس، قاضٍ من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه، من مؤلفاته : (أحكام القرآن) و(الناسخ والمنسوخ) و(قانون التأويل)، ينظر : أبجد العلوم : 3 /149، طبقات المفسرين (الأدنروي) : 180، الأعلام : 6 / 230.

لطائف القرآن، المودعة في الترتيبات، بآلية تحكم محددات الاكتمال التركيبي والدلالي لوحدات اللفظِ والمعنى.

ومن خلال متابعة التعريفات الاصطلاحية لمفهوم التناسب نلحظ الآتي :

أ- الترابط الوثيق بين مصطلحي التناسب والبلاغة، فالتناسب هو (سرُّ البلاغة) على حدِّ تعبير البقاعي؛ لتأديته تحقيق مطابقة المعاني لمقتضى الحال[1]، وهو عند البلاغيين ترتيب المعاني المتآخية[2]، وصولاً إلى علل ترتيب الأجزاء، في حين أن البلاغة من المنظور ذاتهِ تعني التناسب، حين تجتمعُ فيها صفات القوة على البيان مع حُسنِ النظام وصولاً إلى أن ((أبلغ الكلام ما حُسن إيجازهُ، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه))[3]، ونظراً لتمتع بنية التناسب بخصوصية تحقيق التلاؤم والانسجام والتكافؤ بين أجزاء القول، عدّها بعض البلاغيين من أسرار الفصاحة، ومن ثم لم يكن غريباً أن تأتي تسمية (المناسبة) عند أهل الاختصاص مرادفةً لمصطلح (التكرير المعنوي)، حين يرد تعبير (النقيض) ضمن أنواع أربعة للمناسبة[4].

ب- انشغال كثير من البلاغيين والمفسرين بمعالجة قضية النظم داخل الآية القرآنية الواحدة، وعلاقتها بالآيات المتجاورة، متخذين من فكرة (الترتيب) مرتكزاً أساسياً يجمعُ بين التناسب والوحدة العضوية أو الموضوعية، على أساس أن هناك ترتيباً خاصاً في الكلام مؤداه تناسق المعاني في النفس أولاً، ومن ثمة إطلاق الألفاظ مرتبةً مقصودةً وفقاً لمعانيها[5].

(□) ينظر : نظم الدرّر : 1 / 6.

(□) ينظر : نهاية الأرب : 90/7.

(□) نَسَبَ ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) هذا القول لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت 429هـ)، العمدة : 1 / 246.

(□) التناسب أو المناسبة هي (سرُّ الفصاحة) عند ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ)، حين قسمها إلى ضربين : الأول : مناسبة بين اللفظين عن طريق الصيغة وتضم صوراً كـ(السجع، والأزدواج، وتوازي الألفاظ)، والثاني : مناسبة بين اللفظين عن طريق المعنى وتضم صوراً كـ(تناسب التقارب، وتناسب التضاد)، ينظر : سرُّ الفصاحة : 169 و199.

(□) ينظر : دلائل الإعجاز : 54.

ج- إن مرجعية التناسب تتجلى في مراعاتهِ السياق؛ فهو من أهم الأسس الموضوعية التي اعتمدها المفسرون في الترجيح بين الأقوال في كثير من الآيات، مؤكدين عدم جواز صرف الكلام عما هو في سياقهِ إلى غيرهِ إلاَّ بحجةٍ مُسّلمَةٍ أو دلالةٍ ظاهرةٍ[1].

ولعلهم بهذهِ الظاهرة أي (التناسب) يقفون غير بعيدٍ من مُتجه الدراسات الأسلوبية، التي جعلت لمفهوم السياق مُعادلاً موضوعياً يتمثل بألفاظ منها (المقام، ومقتضى الحال، والمقتضى، والتأليف، والنظم القرآني) لدلالتها جميعاً على معنى السياق المقصود، وهذا يجعلنا نشير إلى أن هناك مفارقات بين بلاغيي العرب وعلماء لغة النص، نوجزها باتجاهين يقوم الأول: على معالجة ظاهرة (التناسب) – عند البلاغيين العرب – معالجة بلاغية صرفة يُنظر فيها التركيز على النص القرآني من جانب إعجازهِ، والوقوف على مستوى الشاهد، بينما عولجت هذه الظاهرة – عند علماء لغة النص – من منظورٍ لساني صرفٍ يتجاوز النص بتمامهِ، ويقوم الثاني: على توجّه البلاغيين العرب في التعامل مع التناسب بوصفهِ أصلاً من أصول البديع في سياقٍ بلاغي عام، كما هو الحال عند ابن سنان الخفاجي، والسجلماسي[2]، على سبيل المثال، في الوقت الذي فَصّلَ فيها أصحاب اللسانيات الحديثة العلاقات الترابطية الناتجة عن هذهِ الظاهرة، وأدخلوها تحت مسمياتٍ مختلفة، نظراً لأبعادها التركيبية، ومستويات تنظيمها وتشكيلها في المقولات المعجمية، وبحضور القرائن اللفظية والمعنوية وبيان وظيفتها في النسق الدلالي عموماً[3].

د- تستوعب بنية التناسب كثيراً من مظاهر البديع وفنونه؛ لأنها تعكس الوظيفة التي يحققها هذا الفن، القائم على أساس ظاهرة المصاحبة المعجمية Collocation في الدراسات الأسلوبية، حيث تتجلى في هذه الفنون علاقات السبك المعجمي Lexical cohesion، التي تُحققُ ضرباً من ضروب التماثل Identity، أو

(□) ينظر : جامع البيان : **109/1**.

(□) ينظر : سرُّ الفصاحة : **169**، والمنزع البديع : **477**.

(□) ينظر : الأصول (تمام حسان) : **375**.

التكافؤ Equivalence[1]، ومن أبرز تلك المظاهر (التقابل، والتطابق، والإرصاد أو التسهيم، ومراعاة النظير، ومواضع التأنق في الكلام)، وسنأتي على تفصيلها في المباحث الخاصة بهذا الفصل.

هـ- من خلالِ مراجعة السُلم التاريخي لظاهرة التناسب، نجدُ ثراء مكتبة التناسب القرآني البلاغي، ووفرة التأليف فيه قديماً وحديثاً، وبذلك نخالف رأي باحثةٍ مُعاصرة صرحت بأنَّ ((التناسب علمٌ قلَّ اعتناء الباحثين به))[2]، وأعربت في رأيها أن المؤلفات في هذا العلم قليلة ونادرة، مُطالبةً أهل الفهم الواعي والعلم الواسع على حدِّ تعبيرها، إغناء هذا الفن بالبحوث والمؤلفات، في حين أننا نؤكد خلاف ذلك، إذ إن أول وأقدم إشارة لموضوع التناسب، وفقاً للترتيب الزمني :

1- شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[3] (ت 310هـ)، حين ربط الآية بالسياق البعيد، دلالةً على فطنتهِ وتدبرهِ، في أثناء وقوفهِ على قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[البقرة: 6-7]**.

ويظهر التناسب البديعي في موضع آخر من سورة آل عمران في الآيتين الثالثة والثمانين، والرابعة والثمانين، على الرغم من عدم تصريحه بلفظ التناسب، فقد أظهر العلاقة بين الآيتين، ومستوى العدول في الكشف عن الكلامِ المُقدر المحذوف لدلالة الظاهرِ عليه[4].

---

(1) ينظر : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : **109**.

(2) أثر النظم في تناسب المعاني (رسالة ماجستير) : **7-8**.

(3) ينظر : جامع البيان : **1 /109**.

(4) ينظر : المصدر نفسه : **3 / 318 – 320**.

2- أبو بكر النيسابوري[1] (ت 238 – 324هـ)، هو أول من أظهر علم المناسبة ببغداد، وكان يُزري على عُلمائها عدم علمهم بالمناسبة، باحثاً في سرِّ الحكمة الإلهية في وضع آيةٍ جنب آيةٍ أو سورةٍ جنب أُخرى[2].

3- وقد سبق الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ثُلةً من كبار علماء البلاغة وأئمة التفسير، في التأسيس للترتيب، على الرغم من عدم نصهِ صراحةً على مفهوم التناسب؛ إلاَّ أنه ربط نظرية النظم بالإعجاز الحقيقي للقُرآن الكريم[3]، ومن أشهر من تلاه الإمام الزمخشري[4] (ت 538هـ)، والقاضي أبو بكر بن العربي (ت 543هـ)[5]، والإمام الفخر الرازي[6] (ت 606هـ)، وكمال الدين الزملكاني[7] (ت 651هـ)، وأبو جعفر بن الزبير[8] (ت 708هـ)، والمفُسر الفقيه المعروف بابن المنفلوطي[9]

(□) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل النيسابوري، المحدث، الفقيه الشافعي، كان إمام عصره من الشافعية بالعراق، ينظر : الأعلام : 4 / 119.

(□) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 1 / 36.

(□) ينظر : دلائل الإعجاز : 39.

(□) هو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري، النحوي اللغوي المعتزلي المفسر، الملقب بـ (جار الله)؛ لأنه جاور مكة زماناً، من مؤلفاته : (المفصل في النحو)، و(الرائض في الفرائض)، و(أساس البلاغة)، و(المنهاج في الأصول)، و(تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). ينظر : أبجد العلوم : 30/3، طبقات المفسرين (الأدنروي) : 173.

(□) ينظر : ص 30 من البحث هامش رقم (5).

(□) هو محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي (544 – 606هـ)، المفسر المتكلم، تتلمذ على يد البغوي، من مؤلفاته : (البرهان في قراءة القرآن)، و(المصنف في إعجاز القرآن)، و(التفسير الكبير)، ينظر : طبقات المفسرين (الأدنروي) : 115.

(□) هو عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، الزملكاني، ولي القضاء، ودرس مدة ببعلبك، له : (التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن)، و(نهاية التأويل في بيان أسرار التنزيل)، ورسالة في (الخصائص النبوية). ينظر : أبجد العلوم : 3/ 155، الأعلام : 176/4.

(□) هو أحمد بن إبراهيم الغرناطي، النحوي المقرئ المفسر المؤرخ، كان محدث المغرب كلهُ في زمانه، له (تعليق على كتاب سيبويه)، و(شرح الإشارة في الأصول)، و(سبيل الرشاد في فضل الجهاد)، و(ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التأويل)، ينظر : طبقات المفسرين (الأدنروي) : 397، والأعلام : 1 / 86.

(□) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم ولي الدين الملوي الشافعي، المعروف بابن المنفلوطي، برع في التفسير، والفقه والأصول، والتصوف، وكان كثير العبادة، ترجم له ابن حجر في كتابيه : (إنباء الغُمرُ بأنباء العُمر)، و(الدرر الكامنة)، ينظر : إنباء الغمر : 46/1، ونظم الدّرر : 1 / 8.

(ت 774هـ)، والإمام الشاطبي[1] (ت 790هـ)، والإمام بدر الدين الزركشي[2] (ت 794هـ)، والإمام برهان الدين البقاعي[3] (ت 885هـ)، والإمام جلال الدين السيوطي[4] (ت 911هـ)، والإمام عبد الحميد الفراهي[5] (ت 1349هـ).

وقد أعرب هؤلاء عن موقفهم الواضح إزاء الوحدة العضوية للقرآن جميعه، مُصرّحين غير مرةٍ بلفظ التناسب، ومتعمقين في البحث والتأمل لإيجاد عناصر الترابط والانسجام وكأنه ((شبكة الجهاز العصبي الرابط لأجزاء البدن، والمحكم لحركاته وتناسقها، حتى يصبح الجسد كعضو واحدٍ))[6]، وقد انشغل هؤلاء بالوقوف على علل الترتيب للجمل والآيات والمعاني، وتناسب الفواصلِ مرسخين الاعتقاد بإعجاز النظم القرآني فقد كانت نسبة هذا الفن من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو[7].

ومن أبرز الباحثين في هذا الميدان في مجال الدراسات الحديثة والمعاصرة؛ حتى أصبحوا أساساً جوهرياً في علم التفسير الموضوعي في عصرنا هذا، وفتحوا آفاقاً واسعة لدراسة كتاب الله المجيد نخص بالذكر منهم :

(□) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، المجتهد الأصولي، المعروف بالشاطبي، لهُ : (الموافقات في أصول الفقه)، (الاعتصام)، (أصول النحو)، وهو ممن وصُفوا بأنهم العلماء المستقلون في هذه الأمة (ثلةٌ من الأوَّلين وقليلٌ من الآخرين)، ينظر : الإعتصام : ، مج1، ج1، ص6، الأعلام : 1 / 75.

(□) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 61/1، عَدَّ التناسب واحداً من أهم علوم القرآن، وأفاض في الحديث عن وجوههِ.

(□) ينظر : نظم الدّرر : 7/1، تحدث كُلّ تفسير عن جميع أوجه التناسب في ما أسماهُ بـ (ردِّ المقطع على المطلع، بالنسبة للسورة وجارتها، ونظيرتها، على أساس أن القرآن وحدة واحدة.

(□) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : 2 / 108، وله أيضاً : (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، و(تناسق الدرر في تناسب السور).

(□) لهُ كتاب : دلائل النظام، نبه فيه لأهمية علم المناسبة وجعلهُ علماً شريفاً، ينظر : دلائل النظام : ص75.

(□) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن : 41.

(□) ينظر : نظم الدرّر : 1 / 6.

الدكتور محمد عبد الله درّاز (ت 1958م) في كتابه (النبأ العظيم)، والشيخ محمد عبده (ت 1323هـ)، الأستاذ محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) في كتابه (تفسير المنار)، الأستاذ محمد شلتوت (ت 1963)، والأستاذ سيّد قطب (1906 – 1966م) في كتابه (التصوير الفني في القرآن)، وتفسيره (في ظلال القرآن)، والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم في كتابه (الإعجاز في ترتيب آيات القرآن الكريم وسورهِ)، وعبد الله محمد الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، والأستاذ سعيد حوى في كتابه (الأساس في التفسير)، والأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ) في كتابيه (تاريخ آداب العرب)، و(إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم)، والدكتور عناية الله أسد سبحاني في كتابيه (إمعان النظر في نظام الآي والسور)، و(البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران)، والدكتور محمود البستاني في كتابيه : (عمارة السورة القرآنية)، و(التفسير البنائي للقرآن الكريم) والدكتور محمد محمود حجازي في كتابه : (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)، وكثير من المؤلفات التي لا يمكن حصرها، التي أردنا بذكرها أن ننفي الإهمال المنسوب لهذا العلم من المفسرين قديماً وحديثاً ونؤكد أن الدقة في التعبير أمانةٌ علمية، أي أنَّ البراعة في هذا العلم نادرة؛ ولا سيما في الأعصر الأولى لعمقهِ ودقته؛ ولعدم تمهيد سبيله، فهو من العلوم التي تتقبل مداخل سياقية تنسجم مع ذائقة العصر، والتطور الحاصل في التوجّهات والإجراءات.

ثانياً : أوجهُ التناسب البديعي وأثرها في النظم القرآني :

مما سبق نؤكد أن الأساس الذي انطلقت منهُ حقيقة التناسب عند أئمة علماء التفسير والبلاغة يرتكز على قاعدةٍ متينةٍ مؤداها ((أن السورة القرآنية في بنائها اللغوي وتكوينها التعبيري، قائمة على الاتساق الكامل والاعتلاق الوثيق بين جميع عناصرها))[1]، وبذلك تتنوع وجوه التناسب البديعي في النظم القرآني تبعاً لتنوع الروابط العضوية والموضوعية ودلالاتها، سواءٌ كانت عامة أو خاصة، عقلية أو

(□) المنهج البياني في تفسير القرآن : **80**.

حسية أو خيالية أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني[1]، وتبعاً لذلك كان إجماعُ العلماء على ترتيب الآيات في السورة القرآنية توقيفي[2]، يمنح كل سورة احتواءً لمجموعةٍ من المعاني المتلاحقة ضمن شبكة من العلاقات الرامية إلى غايةٍ محددة تتناسبُ فيها الالفاظ والدلالات فتشكل نظاماً من البديع القرآني المُعجز.

إن البحث في التناسب القرآني وربطهِ بالمظاهر البديعية نابعٌ من أن التناسب واحدٌ من أبرز آليات بناء أي نصٍ لغوي على مستوى الوحدات المكونة له (معجمية، صوتية، دلالية) وهذه نفسها معايير البديع، وفقاً للمنهجية الأسلوبية التي تتبعها البحث في سعيها لإعطاء صورةٍ إجمالية عن القرآن الكريم فهو وحدة متناسقة متماسكة تشكل بلاغة أسلوبهٍ ونظمهِ.

ثالثاً : (التوازي **Parallelism**) أو التوازن البديعي/دلالته النظمية والإيقاعية :

التوازي ظاهرة لغوية دلالية تُسهم بفاعلية في تشكيل متواليات إيقاعية وفق منظومةٍ بلاغية متناسقة، متناغمة، تُعدُّ جزءاً من المعنى، من خلال الكشف عن ((البنية المسؤولة عن توزيع العناصر اللغوية والفنية والدلالية داخل العمل الأدبي))[3]، وهذا المفهوم يؤكد الدلالة المعجمية لمادة (وزي) التي تجمعُ معاني المقابلة والمواجهة والمماثلة[4]، مما يؤكد وجود أطراف أو عناصر داخل النسق[5] الواحد، تتفاعل فيما بينها أو تتكرر محدثة ترديداتٍ صوتية لها فاعليتها الدلالية في السياق العام، وتختلف بإختلاف البنيات التشكيلية والمقاطع النغمية، والمواقع الوظيفية الخاصة بها.

ولعلَّ في التراث البديعي من الثراء والخصوبة ما يفتحُ آفاق البحثِ والدراسة الجادة لإيجاد علاقاتٍ توازنية، تستنطقُ مظاهر البديع، وتُعيد تشكيلها من منظور

(□) ينظر : البرهان في علوم القرآن : **35/1**، الإتقان في علوم القرآن : **108/2**.

(□) ينظر : البرهان في علوم القرآن : **1 / 38**/ الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم : **153**.

(□) البديع والتوازي : **7**.

(□) ينظر : مادة (وزي) في : معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب، والقاموس المحيط.

(□) النسق : هو ((نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحداً، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها))، عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو : **291**.

الدراسات الحديثة، بالتركيز على دقائق العلاقات الترابطية بين تلك المظاهر، وبذلك يكون التوازي أحد أهم العلاقات الجامعة بين فنون البديع، يكشف عن وظيفتها من خلالِ توسيع نطاقها الترابطي التماثلي في النص بتمامهِ[1].

وقد أفادت هذه الدراسة من محاولات رومان جاكبسون R. Jakobson، وجيمس فوكس James J. fox[2]، في الكشف عن العلاقات الرابطة بين مفهوم التوازي؛ بوصفهِ ملمحاً يخضع لمتطلبات السياق، كالوزن، والقافية، والسجع، والفاصلة، وبين البديع في مظاهره الفنية الخاضعة لمعطيات علمية منظمة، وموسيقى صوتية ذات محتويات دلالية قيمة؛ لأن ((العلاقة بين البديع والتوازي علاقة أخذ وعطاء، فكلاهما يتصل بالآخر، والمعبر لهذه الصلة، هو التنسيق الصوتي))[3]، وبذلك يؤدي التوازن والتعادل نوعاً من الإنسجام الإيقاعي الصوتي، الدلالي داخل منظومة العمل الأدبي.

تُحقق ظاهرة التوازي/التوازن، نوعاً من التكرار للبنية على مستوى التركيب النحوي Syntax، الذي ينتج عنهُ حتماً توازناً صوتياً Phonological Recurrence، والمعول في هذا التوازن هو تكرار أوزان بعددٍ مُعين وثابتٍ يُشكل ما يُعرف بـ (النظام العروضي) Prosodi system، وقد أوجز ديبوجراند وديسلر القول في التوازي بوصفه مستواً أدائياً قائماً على ((إعادة البنية مع ملئها بعناصر جديدة))[4]، ويمكننا بذلك تحديد وجه المفارقة بين التكرار والتوازي، فالتكرار يتطلبُ تماثلاً فقط، في حين تستلزم بنية التوازي التعادل والتماثل في آنٍ واحدٍ، وبهذا يصبح التوازي أعمُّ من التكرارِ[5]، متخذاً من علاقاتِ التشابه والتغاير أساساً لتوزيع الثوابت والمتغيرات وقابلية التمييز بينهما.

---

(1) ينظر : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : 141.

(2) Fox, James, J. ((Roman Jakobson and The comparative study of parallelism,)) p. 73, pp.59-81.

(3) البديع والتوازي : 54.

(4) De Beaugrand and Dressler : Introduction to text linguistics, P 49.

(5) ينظر : البديع والتوازي : 18.

وفي ضوء ذلك يؤكد البحث عدم جدوى دراسة علم البديع بعيداً عن منظومة التوازي؛ لاعتبارات شكلية ترتكز على الترديدات الصوتية أو (التنغيم)[1]، واعتباراتٍ دلالية تتخذ من التطابقِ والتعادل والتماثل اللغوي أساساً للتمايز بين البنى التركيبية، حين تؤدي مظاهر الإيقاع الدلالي وظيفتها المعنوية عن طريق التوازي المبني على التضاد أو التقابل بين الألفاظ والجمل المركبة، ومن ثم فإن للتوازي إيقاعٌ خاص تظهره التشكيلات الأسلوبية مجتمعةً لتكسب التراكيب القرآنية وفق دالاتٍ لغوية أو نحوية أو بلاغية، إيقاعاً خاصاً يتمثلُ بالفواصل القرآنية، أو التجنيس أو ردّ الإعجاز على الصدور.

ولعلَّ أولُ المظاهر البديعية المتشكلة على وفق علاقات التناسب والتوازي هو مظهر (المطابقة).

المبحث الأول : المطابقة، (مولِّدٌ دلالي) :

أولاً : مدارات الطباق المعجمية والاصطلاحية :

قبل الحديث في الأثر الأسلوبي لفن الطباق، نقفُ أولاً عند بيانِ مفهومهِ اللغوي والاصطلاحي؛ ليكون سبيلاً للوصولِ إلى الفهم الدقيق عند إجراء عملية التحليل الأسلوبي والرصد لمظاهرهِ وأنواعهِ وبلاغته.

يعدُّ أسلوبُ الطباق رُكناً من أركان البناء اللغوي والبياني، الذي زخرت به النصوص العربية شعراً ونثراً، وليس مجرد شكلٍ من أشكال الزينةِ والحشو الذي يُرهق النص بما لا فائدة ولا جدوى منهُ، فالعرب لا تأتي بالمتضادات والمقابلات؛ إلاَّ إذا كان المخاطب بحاجةٍ إلى تأكيد دلالةٍ خلقاً للتوافق المعنوي.

الطباقُ مصدرٌ مشتقٌ من الأصل الثلاثي (طَبَقَ)، وهذا الأصلُ يُشير إلى معانٍ عديدة، تقتربُ من بعضها دلالياً، فمن معانيه اللغوية : وضعُ طبقٍ على طبقٍ، كوضعِ غطاءِ القِدْرِ منكفِئاً على فم القدر حتى يُغطيهِ بإحكامٍ، ومنهُ إطباقُ بطْنِ

---

(1) التنغيم أو موسيقى الكلام، وهي ظاهرة لها دورها الفاعل في اللغة العربية، من خلال التفريق بين المعاني المختلفة للجملة الواحدة، وتعد من أهم القرائن التي تميز الكلام في طرائق استعماله، ينظر : دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية (بحث)، د. سامي عوض، عادل علي نعامة، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، مج: 28، ع 1، سنة 2006م، ص 90.

الكفِّ على بَطنِ الكفِّ الآخر، تقول : طابقتُ الشيءَ على الشيء مُطابقةً وطباقاً، أي : أطبقَهُ عليه[1]، ومن معانيه أيضاً : طابق البعير، أي : وَضَعَ رجلهُ موضِعَ يده؛ لذا قال الأصمعي (ت 313هـ) : ((المطابقةُ أصلها وضعُ الرِّجل موضعَ اليدِ في مشي ذواتِ الأربع))[2]، ومن معاني الطباق : ((جعل الشيء فوق الآخرِ بقدرِه، وفيما يوافق غيره كسائر الأشياء الموضوعة لمعنيين، ثم يُستعمل في أحدهما دون الآخر، كالكأس والرّاوية ونحوهما))[3]. جاء في النظم القرآني قوله تعالى : ﴿ □ □□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□□□ □□□ □ ﴾[الملك:3]، أي : بعضها فوق بعضٍ.

وقوله تعالى : ﴿ □□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □ □□□ □□□□□ ﴾ [الانشقاق:19]، أي : مشقةً بعدَ مشقةً، إشارةً إلى أحوال الإنسان في الدنيا[4]، ومن مجمل المعاني اللغوية المتقدمة، يتبينُ أن مدار الطباق في محورين رئيسين هما :

المحور الأول : التطابق.

المحور الثاني : التضاد.

أما المعنى الاصطلاحي للطباق، فقد كان متفاوتاً في التسمية عند أصحاب المصنفات البلاغية ما بينَ تطابقٍ، وتطبيقٍ، ومطابقةٍ، ومجاورةِ أضدادٍ، وتكافؤ، وتناسب بين المعاني[5]، وقد أجمعَ عددٌ غير قليل من البلاغيين على مصطلح (الطباق)[6]، والطباقُ في اصطلاح البلاغيين هو الجمعُ في العبارة الواحدةِ بين معنيين متقابلين بالضدِّ أو غيرِه، ظاهراً كان الجمعُ أو خفياً، وبالإيجاب في الطرفين

(□) ينظر : أساس البلاغة : مادة (طَبَقَ)، لسان العرب : مادة (طَبَقَ).

(□) العمدة : **2 / 6**.

(□) المفردات في غريب القرآن : **304**.

(□) المفردات في غريب القرآن : **304**.

(□) يسميه ثعلب (ت **291**هـ)، (مجاورة الأضداد)، فهو عنده ذكر الشيء مع ما يعدم ووجوده، أما المطابق عنده فهو تكرير اللفظ بمعنيين مختلفين، ينظر : قواعد الشعر : **58**، أما ابن المعتز (ت **296**هـ) فينكر هذا الرأي، وينقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت **175**هـ)، مفهوم الطباق تأسيساً على فكرة التضاد ويسميه (المطابقة)، ينظر : البديع : **36**، في حين شذَّ قدامة بن جعفر (ت **337**هـ) عن تعريف البلاغيين للطباق عند إطلاقه مصطلح (التكافؤ) بدلاً من المطابق؛ لكون الثاني عنده ((ما اشترك في لفظةٍ واحدةٍ بعينها)) نقد الشعر : **162**.

(□) ينظر : كتاب الصناعيين : **276**، وإعجاز القرآن (للباقلاني) : **80**، والعمدة : **2 / 5**، وسرُّ الفصاحة : **200**، والمثل السائر : **143/3**، وبديع القرآن : **31**، وتحرير التحبير : **111/1**، والطراز : **3 / 356**.

أو في أحدهما، على سبيل الحقيقةِ، أو على سبيل المجازِ، ولو إيهاماً، ولا يُشترط في اللفظين الدالين على الطباق أن يكونا من نوعٍ واحدٍ، (اسمان أو فعلانِ أو حرفان)، فالشرط التقابل في المعنيين فقط، وللتقابل المعنوي وجوهٌ منها :

1- تقابلُ التناقض[1].

2- تقابلُ التضاد.

3- تقابل التضايف[2].

ويبدو أن الطباق من أوضح مصطلحات التقابل، إذ يرتكز على الجمع بين المتضادات والمعاني المتقابلة في الكلام، وعلى الرغم مِن اختلافِ وجهات النظر بين البلاغيين حول إثبات المناسبة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي لفن الطباق ونفيها، فإننا نُرجحُ ارتباط المعنيين بطريقةٍ جديدة من التناسب والتلاؤم، فكأنما هذا التناسب الظاهر في دلالة المطابقة لغوياً يؤكد أهمية الأضداد في توليد الأثر الفني.

وأهمّ ما يلفت النظر في المطابقة، توليدُ المعاني في التراكيب وبيان مدى الاتصال بينها، فالضدُّ أو المقابل يجلبُ إلى الذهن ضدَّهُ أو مقابله مباشرةً؛ لأنهما متضايفان يستند بعضهما إلى بعض؛ ولتحقيق عملية الاستناد التقابلي في الدلالة لابُدَّ من استحضار المعاني الغائبة في الكلام، وتمكينها من الذهن بذكرِ ما يُضادهما تناسباً مع الموجودات المتناقضة سلباً أو إيجاباً.

ثانياً : دالات المطابقة وتناسبها مع الدلالة :

لكُلّ مظهر من المظاهر البلاغية تقنية دلالية خاصة تتناسب مع الآليات التي يعمل بها، لإفراز دلالات تقود إلى فهم الجوانب الجمالية وتمكينها من النفسِ من خلال الكشف عن الإجراءات الأسلوبية وعلاقاتها السياقية داخل نصٍ ما، وحتى نستطيع أن نُدرك دالات المطابقة واتحادها مع دلالاتها؛ لابدّ من رصدِ أهم صورها، وبيان تطبيقاتها على النصوص القرآنية – موضوع الدراسة – والقيام بعملية مسح

---

(1) النقيضان : ((هما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان، أما الضدان : فهما اللذان لا يجتمعان؛ لكن يمكن أن يرتفعا، كالأبيض والأسود، وارتفاعهما يكون بوجود لون اخر، كالأحمر والأصفر)). البلاغة العربية (الميداني) : 377/2.

(2) التضايف : ((هو أن لا يدرك كلّ من الأمرين إلاّ بالقياس إلى الآخر. كالأبوة والبنوة))، الكـُلِّيات : 311.

دقيق لواقع استعمال الطباق في هذه النصوص، وتتعدد صور الطباق باعتباراتٍ مختلفة :

أولاً : الطباق باعتبار طرفيه قسمين :

أ- الطباق الحقيقي : وهو ما كان طرفاه بألفاظ الحقيقة، إما من نوع واحدٍ من أنواع الكلمة : (إسمان، فعلان، حرفان)، وإما من نوعين مختلفين (اسمٌ وفعل) ودالات الطباق الحقيقي أربعة هي :

1- أن يكون الطباق بين اسمين :

قال تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[فاطر:19 – 22]**.

تسهم التشكيلات التجميعية المتضادة والمتلاحقة في تعضيد الدلالة التي ينتجها الطباق الظاهر بالإيجاب، فقد جمعت الآيات القرآنية الواردة في سورة فاطر، الأنساق البنائية للألفاظ (الأعمى والبصير)، (الظلمات والنور)، (الظلّ والحرور)، (الأحياء والأموات)، وكل نسقٍ تعبيري يقفُ في مواجهةِ النقيضِ على سبيل المعارضةِ والتناقض؛ لتبين عناصر دلالية ذات بُعدٍ جماليّ قادر على إيصال المعنى والكشفِ عن إيحاءاتهِ بالتضاد الإيجابي، وهو أمرٌ لفظيٌ ظاهرٌ بتقابل الطرفين على وجه الضدية الحقيقية؛ ((فالدلالة المضادة يستدعيها الذهن وفق مفهوم اللاشعور تارةً، أو أن اللفظ المقلوب قد يردُّ في موضعٍ ما من النص القرآني؛ ما يستدعي ذكر اللفظ المضادِ المقلوب لهُ في الموضعِ الآخرِ تارةً أُخرى))(1)، وهذا يعني أن للطباق أثراً أسلوبياً على النص الواردِ فيه، بإخراجهِ من رتابة التشابه والتكرار إلى دلالات أعمقِ بتوسيع مساحة العنصر الجمالي الكامن في المتضادات؛

---

(1) التقابل الجمالي في النص القرآني : **158**.

فالألفاظ (أعمى وبصير) تحمل دلالة إيحائية يتنَبهُ لها الذهن باستحضار العناصر المكافئة لها؛ لإثبات الدلالة المطلوبة وهي (الكافرُ والمؤمن)، في حين تدّل الفاظ (الظل والحرور) على معنى الجنةِ والنارِ، وكذا الفاظ (الأحياء والأموات) الدالّة على المؤمنين والكافرين، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، وقد وردت هذه الحقائق في سياق (المطابقة) التي أظهرها الزمخشري[1] واضحة تجلي المكامن الخفية وتهيئ الأذهان للمقارنة؛ وصولاً للدلالة المقصودة.

إن إدراك الطباق هنا واضحٌ لا خفاء فيه، فلا يحتاجُ إلى تأملٍ وطولِ وقوفٍ عنده، فالتقابل بين تينك الوحدات تمَّ إجراءهُ في قياس هندسي لزوجٍ من المفردات، أحدثت أثراً دلالياً قائماً على التنسيق البنائي الذي يُنتجُ نوعاً من التوازن الصوتي الواضح في دقةِ التقسيم، والاختيار المؤتلفِ مع المعنى، متوخياً التأثير المطلوب في النفس الذي يقتضي الموالاة أو التعاقب بين طرفي الطباق؛ لإبرازه وتجسيده.

تأمل إجراءات الطباق في التعابير القرآنية الآتية :

أ- قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾[**الكهف:18**].

ب- قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾[**الحديد:3**].

ج- وقوله تعالى: ﴿[illegible]﴾[**الفرقان:70**].

د- وقوله تعالى : ﴿[illegible]

---

(1) ينظر : الكشّاف : **3 / 630**.

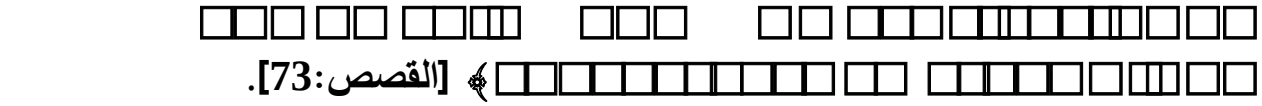

[illegible] ﴾ [القصص:73].

تُظهر أساليب المطابقة والتضاد في التعابير القرآنية نوعاً من العلاقات المتبادلة بين الدلالات اللغوية، حيث يَقفُ كل دال/مدلول منسجماً مترابطاً بين وحداتهِ في مواجهةِ الآخرِ، بمقتضى ما يحكم تلك الوحدات من تناقضٍ وتعارضٍ، فالتناقضُ يُحيلها على ضديات متقابلة في حين يحيل التعارض فيها على أنساق متكافئة متناسبة، وهذا يعلل نظرة البلاغيين القدماء إلى الطباق على أنه تكافؤٌ أو تناسبٌ بين المعاني بطريقة ما[1].

هـ- ولا يمكننا في هذا المقام أن نغفل أسلوب الطباق الظاهر على وفق مفهوم الحقيقةِ بمعيار الدلالة الواضحة في قوله تعالى : ﴿ [illegible] ﴾ [النور:41].

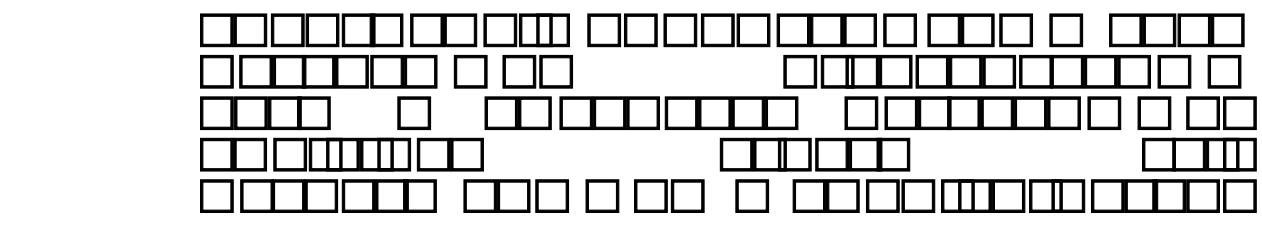

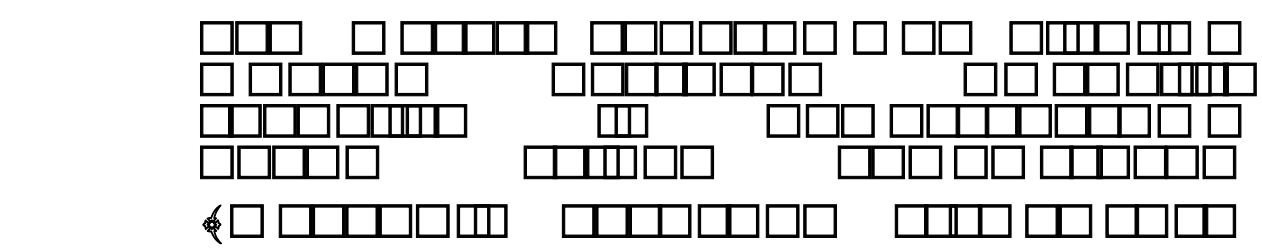

و- وقوله تعالى : ﴿ [illegible] ﴾ [الإسراء:88].

لقد برز أثرُ الطباقِ في هذه الآيات، متجاوزاً النظرة التجزيئية التي تقصرهُ على التزويق الشكلي، فيتضحُ الأثر المعنوي من خلال ارتباط الدالِ بالمدلولِ محدثاً

([1]) أدرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ) مفهوم الطباق تحت باب التكافؤ، ينظر : نقد الشعر : 315، أما ابن الأثير (أبو الفتح نصرُ الله بن أبي الكرم)، الملقب بضياء الدين (ت 558هـ – 637م)، فقد نحا بأسلوب الطباق منحى ابن سنان الخفاجي حين أورده تحت مسمّى (تناسب الألفاظ عن طريق المعنى)، ينظر : المثل السائر : 3 / 143، وسرّ الفصاحة : 169، وأرجع العلوي (يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني)، (ت 749هـ) مفهوم الطباق إلى التكافؤ وحاصلهُ الإتيان بالنقيضين والضدين، ينظر : الطراز : 3 / 356.

فاعليةً في النصِ بحركةٍ ذهنيةٍ يمكنُ وصفها بأنها : ((تحطيمٌ مقصودٌ لكيانات الإدراك الحسي المعتاد، وتصديعٌ لمقولات الفهم المنطقي، وتنميةٌ بواسطة الخيال لحركة تتجاوز بنيتها قانون الاتجاه الواحد))[1]، فتعالقُ لفظ (السموات) بـ(الأرضِ) و(الانس) بـ(الجن)، لا ينحصرُ في الجمع بين متضادين اثنين، بقدرِ ما هو عدول عن المعنى المذكور إلى المتضمن بآلية التناقض والتضاد وتطبيقات هذا النوع من الطباق لا حصر لها في التعبير القرآني[2].

2- أن يكون الطباق بين فعلين :

كما في قولهِ تعالى : ﴿□□□□□ □ □□□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□□ □ □□□□ □ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □ □□□□□□ □﴾ [آل عمران:26].

لعبت البنية التركيبية للأفعال المضارعة (تؤتي، تنزع، تُعز، تُذل) دورها الأسلوبي في تعزيز الدلالةِ، والكشف عن أنماط التناسب المنطقية في ثنائيات متطابقة، أثبتت بما لا يقبل الشك تمجيد الله –تعالى– والثناء عليهِ بسلطانهِ المُطلق، وملكهِ التام للكون وما فيهِ، وقدرتهِ على التصرفِ في الموجودات والأقدارِ كما يشاء، فهو جلَّ شأنهُ القادر على الشيء وضده معاً، دون مُنازعٍ له؛ لذا جاءت خاتمة الآية تقريرٌ بقدرتهِ –تعالى– على كل شيء، ﴿□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□ □ □□□□□ □□□□□ □﴾، وقد أفرز أسلوبُ الطباقِ بين الأفعال المتضادةِ الهيمنة المطلقة على النصِ وذلك بالكشفِ عن العلاقات المتبادلة بين التراكيب وبين مدلولاتها ((بذكر الأضداد التي هي أقدرُ على تمييز الأشياء

---

(1) البديع وفنونه : 207.

(2) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : سورة البقرة : 179، وسورة الحج : 61، وسوة غافر : 41، وسورة الفتح : 29، وسورة هود : 44، وسورة الإسراء : 29 و257، وسورة آل عمران : 27، وسورة الرعد : 12.

وتجليتها))[1]، وهذا يُحيلنا على ضرورة الالتفات إلى العامل النفسي؛ لأن المتلقي يُفاجأ بالضدِّ من المعنى، بعد إذعانهِ وتسليمهِ للمعنى الأول.

ومثيلُ ذلك قوله تعالى : ﴿□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□□□□ □□□□ □ □□□□□□□□ □□ □□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□ □ □□□□□□□□□□ ﴾ **[الملك:13]**.

أظهر أسلوبُ الطباقِ في أفعال الأمر (أسروا واجهروا) عِلم الله –تعالى– بالخفاءِ والعَلَنِ من الأمرِ، وجيء بصيغةِ الفعل (أسرّوا) مُقدمةً على دلالةِ الجهرِ المتمثلة بصيغة فعل الأمرِ (اجهروا)؛ لأن العلم به أدلُ على كمالِ علمهِ تعالى وإحاطتهِ بكافةِ المعلومات[2]، زيادةً على ما يُضفيهِ ملمحُ الطباقِ من ترابطٍ منطقي يفترضهُ التركيب، فالسرُّ ضد الجهر مُطابقة أساسية، يمكننا توليد بنية مُغايرة لهذه المُطابقة نُطلق عليها (المطابقة المولدة) والتي تتسم بإنحرافها عن قواعدها، لقصدِ غايات أسلوبية لها أثرها الفاعل في الدلالة، فمكمنُ السرِّ هو الصدور؛ بل (ذاتُ الصدور) أي الضمائر قبل أن تترجم الألسنة عنها، فالمطابقة بين الدلالتين ينتجُ عنها حقيقة منطقية تقابل ذلك : وهي العلمُ بالجهر لتعلقهِ بظواهر الألسنة.

تأمل قوله تعالى في سورة النجم : ﴿□□ □□□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□ □□ □□ □□□□□□□□ □□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □﴾ **[النجم: 43 – 44]**.

أجرى التعبير القرآني مُطابقة حقيقية ظاهرة بين صيغ الأفعال الماضية (أضحك، أبكى، أمات، وأحيا)، انبثقت منها دلالةٌ إيحائية على كمال قدرةِ الله تعالى بإيجاد الأضداد واجتماعها في موضع واحدٍ، مؤكدة بإسنادها إلى الله تعالى، وفقاً لآليات التوكيد المباشرة بـ (أن + ضمير الفصل هو)، وهذا التركيب أفادَ قصرَ إسنادها إلى الله تعالى جلت قدرته، ومن الملامح الأسلوبية التي أفرزتها المطابقة،

(□) دراسات منهجية في علم البديع : **36**.

(□) ينظر : الكشّاف : **4 / 435**.

حذفُ مفعولات صيغ الأفعال المتضادة؛ لقصدِ الوصولِ إلى الأفعال بذاتها، لا إلى مَن تقع عليه، زيادةً على ما في أسلوب التقديم الواردِ في الآيةِ من إجراءٍ دلالي أثرى السياق القرآني تناسباً، ورعايةً للفاصلة التي جاءت عليها سورة النجم[1]، والقرآن الكريم يزخرُ بالشواهد والتطبيقات على هذا النوع من الطباق، التي لا يسع البحث تطبيقها بالتحليل[2].

3- أن يكون الطباقُ بين حرفين :

يرتكز هذا النوع من الطباق على معرفة دلالات الحروف حيث لا يظهر للحروف معنى إلاَّ مع غيرها، وهي متعددة المعاني، ولا يُحدد معناها إلاَّ السياق والاستعمال، وهذا يعني صراحةً تعيين العلاقة بين اللفظ ومعناه؛ ((لأنه قد يُطلق اللفظ ولا يعني به مدلوله المطابق له))[3]، فالصيغة المعجمية تكتسب دلالات إضافيةً ناتجة عن الدخول المتجاور والمتناسب مع الوحدات اللفظية وفق معايير منطقية ونحوية.

ومن أبرز التطبيقات القرآنية على هذا النوع من المطابقة قوله تعالى :

﴿ [illegible] ﴾ **[الإسراء:1].**

في ضوء الالتفات إلى الدلالة المعجمية التي أحدثها أسلوب الطباق بين الحرفين (من) التي تُفيد دلالة الابتداء، وبين الحرف (إلى) الذي يؤدي دلالة انتهاء

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير : **27 / 143–144**.

(2) ينظر على سبيل المثال : سورة هود : **5**، وسورة إبراهيم : **38**، وسورة النحل : **6** و**23**، وسورة الإسراء : **30**، وسورة مريم : **33**، وسورة طه : **39** و**55** و**79** و**118 – 119**، وسورة الشعراء : **119 – 120**، وسورة القصص : **69**، وسورة العنكبوت : **62**، وسورة الروم : **17**، وسورة لقمان : **20**.

(3) علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي : **143**.

الغاية، نكشف عن ثراء الصورة الطباقية التي تتخذ من الحرف وسيلةً للتعبير عن المتضادات مما يعني رفع احتمالية المعنى[1]، فقد عبر الزمخشري عن دلالةِ (من) بمعنى ((أنه أسرى به بعضُ الليل من مكةَ إلى الشامِ مسيرةَ أربعينَ ليلةً))[2] بدلالة تنكير لفظ (الليل) الدال على معنى البعضية، والحقيقة التي تؤكدها كتب اللغة أن (من) التزمت دلالة الابتداء، مما يُطابق دلالة الانتهاء في حرفِ الجر المُضادِ لها (إلى)، ومثيل هذا التعبير قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ [البقرة:286].

أكسب حرفا الجر (لها) و(عليها)، التعبير القرآني وجهاً من التضاد والتقابل للدلالة على أن (لها) ((يعني من الحسنات))[3] في الثواب على ما قدمه الإنسان من أعمالٍ صالحة، و(عليها) ((يعني من السيئات))[4] في العقابِ بما ارتكبه الإنسان من ذنوب، زيادةً على أثر هذه الحروف في توسيع المعنى المراد، لما في (اللام) من دلالة المنفعة، وما في (على) من دلالة المضرّة، أي : لا ينتفعُ بطاعتها، ولا يتضرر

---

(1) أكد الدكتور فاضل صالح السامرائي أن رفع الاحتمال عن المعنى يأتي في العربية نتيجة وجود تعبيرات تحتمل أكثر من معنى؛ وفقاً لطرائق وأدوات تُزيل هذا الاحتمال و(الذِكْرُ) في هذه الآية هو السبيل لرفع احتمال المعنى (وهو ذكر حرف الجر الباء). ينظر : الجملة العربية والمعنى : 231 – 234.

(2) الكشاف : 1/3.

(3) بدائع الفوائد : 505/2.

(4) المكان نفسه.

بمعصيتها أحدٌ سواها[1]، وقد أضفت حروف الزيادة في صيغة الفعل (أكتسب) دلالةً إضافية بزيادة حرفي الهمزة والتاء على الفعل الأصلي الثلاثي (كَسَبَ)؛ لذا أدت تلك الحروف المزيدة تأثيرها الأسلوبي في الدلالة السياقية المتضمنة جُهداً ومشقةً في فعل المعصية الذي يكلفُ صاحبه أعباء جسمية ومادية؛ ((فالإكتساب يستدعي التعمُّل والمحاولة والمعاناة، أما الكسب؛ فيحصل بأدنى ملابسة))[2] لأن الأصل في كل حرفٍ الدلالة على ما وضع لهُ، ولا يدل على معنى حرفٍ آخر[3]، فجيء بصيغة الفعل (اكتسب) استيفاءً للمعنى، وتقويةً للدلالة[4].

مما سبق يمكننا التأكيد على أن مظاهر الطباقِ ودلالاتهِ ليست أمراً نافلاً أو زينةً عرضية يؤتى بها لغايةٍ تحسنيةٍ شكلية؛ بل هي إجراءاتٌ أسلوبية تقوم على أساسِ الاختلافِ والمغايرةِ والعدولِ، مؤسسةً لمنهج فني بلاغي، لغوي يحملُ من الإيحاءاتِ والأبعاد الفكرية والنفسية؛ لأن بنيتهُ ((تتحدد بتوالي العناصر المرسومة في مقابل غير المرسومة في مجموعات ثنائية تمثل السياق والإجراء المضاد له، الذي لا ينفصل عنه، إذ لا يمكن أن يقوم أحدهما مستقلاً عن الآخرِ، فكل واقعة أسلوبية تشمل بالضرورة سياقاً وتضاداً))[5]، مما يجعلنا نُدرك بأن قيمة التطابق الأسلوبية تكمن في العلاقات المعبرة عن وجهة نظرٍ فكرية أو نفسية في الظاهر والباطن لقيامها على مبدأ التناسب البنائي وتوخي التأثير المطلوب.

4- الطباق بين طرفين مختلفين في النوع (اسم + فعل) أو العكس.

يقوم هذا النوع من المطابقة الحقيقية الظاهرة على إيراد صيغتين من نوعٍ مختلفٍ خلافاً لما سبق ذكرهُ، ويحكم العلاقات الجامعة للألفاظ والصيغ المتضادة،

(□) ينظر : البحر المحيط : **381/2**.

(□) بدائع الفوائد : **505/2**.

(□) ينظر : الكتاب : **74/4**.

(□) ينظر على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: **24**].

(□) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته : **195**.

فإن علاقة (التصاحب المعجمي)[1] Collocation، هي الأظهرُ في التعبير القرآني؛ لأن في القرآن معانيَ لا تكاد تفترق، مثل : الصلاة والزكاة، الخوف والجوع، الجنة والنار، الرغبة والرهبة، المهاجرون والأنصار، الجن والإنس، السمع والبصر، الموت والحياة، وما إلى ذلك.

تأمّل قوله تعالى : ﴿□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□ □□ □□□□□ □ □□□□□□□□□□ □﴾ **[البقرة:260].**

وقوله تعالى : ﴿□□□□□□ □□□□□ □□□□□□ □ □□□□□□□□□□□□□□□﴾ **[الأنعام:122].**

صرحت الآيتان بإظهار الضدّية الدلالية بين الإسم والفعل في (ميتاً) و(أحييناهُ) وبين الفعل والاسم في (تُحيي) و(الموتى)، على وجه الاستعمال المجازي، إذ عَدَل عن المعنى الحقيقي المتمثل بـ (الضلالة والهدى) إلى معناهما المجازي (الموت والحياة)، وكلا المعنيين يحملُ دلالة إيحائية للتضاد المتقابل، فالموت ضد الحياة، والضلالة ضد الهدى، وينتجُ عن هذا التطابق ترابطاً منطقياً ليس في اللفظِ وحسب؛ بل في التراكيب، فقد جمعت الآيتين ثنائية الوجود المُطلق المتشكلة في مُطابقة لفظية بسيطة في ظاهرها لمن يتأملها للوهلةِ الأولى؛ لكنها شُحنت بدلالاتٍ متعددة ناتجة من المطابقة الأساسية، فالموتُ عادةً شُحنةً سلبية، في حين أن الحياة حاملة للشحنة الإيجابية في هذه المعادلة؛ لذا فالمسافة الحسية أو الوهمية بين المعاني تكون آثارها الدلالية مكنونةً مُضمرة فيها، تقصرُ إذا ما علمنا أن تذوق المعاني والأغراض في النصوص لا يتحقق إلاَّ عن طريق التأمل في البناء اللغوي الخاص بتلك النصوص وقراءة معنى المعنى فيها.

ومن مطلقِ هذا الوعي نثبتُ أن لهذا النوع الطباقي بنىً متغايرة في انحرافها الواضح، فهو ليس مجرّد تباين بين الشيء ونقيضه، أو أنه مجرد شكل بلاغي يتمحل الاعداد الإحصائية التي تُضفي بعض الاتجاهات الفنية[2]؛ بل أن فكرة

(□) ينظر : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : **110.**

(□) ينظر : التقابل الجمالي في النص القرآني : **163.**

المطابقة تُدعم بأثرها الأسلوب البيّن في الدلالة التي تجمع الانساق كلها، وتشرح العلاقات القائمة بينها باستدعاءِ مدلولاتها من ألفاظها؛ ((لأن دلالة اللفظ على كل اجزائهِ هي دلالة مطابقة))[1]، وهذا يجعلنا في تصور دائم للأبعاد الشمولية لكافة الانساق الدلالية وكيفية تحقيقها في واقع اللغة.

تأمّل قوله تعالى : ﴿□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□ □ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□ □ □□□ □ □□□□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□ □ □□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□﴾ **[الملك:19]**.

وَلَّدَ الطباق الإيجابي الحقيقي بين اسم الفاعل (صافّاتٍ) وهو الأصل السياقي في هذه الآيةِ، وبين صيغة الفعل (يقبضن) الدالة على الحدوث والتجدد، دلالةً جديدةً بالعدول عن ما هو متوقع لدى المتلقي، أي : أن مقتضى السياق بموجب المطابقة بين التعبيرين يكون (صافاتٍ وقابضاتٍ)، فَعَدل عن الاسم إلى الفعلِ؛ لعدم إيفاء الاسم بالدلالة المقصودة لو استمر السياق على نسقهِ العام دون مخالفة التعبير، فجاء قوله تعالى : ﴿□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□﴾[2].

وقد أكَدَ الزمخشري (ت 538هـ) على دقة التعبير القرآني في هذه الآية وبراعة التوظيف الدلالي للاسم والفعل، ((فإن قلت : لِمَ قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صفُ الأجنحة، وأما القبضُ فطارئٌ على البسطِ للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل)[3]، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□ □ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□ □□□ □□□

(□) علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي : **144**.

(□) ينظر : الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي : **118**.

(□) الكشّاف : **4 / 437**.

□□□□□□□ □ □□ □□□□□□□□□□□ □
□□ □ □□□□□□□□□□□□□□□□□ □﴾[النور:41].

ومن أمثلة المطابقة بين الاسم والفعل قوله تعالى في سورة المؤمنون :

﴿□□□ □□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□□
□□□□□□□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□ □□
□□□□□ □ □□□□□□□□□□□□
□□□□□□□□□□□□﴾ [المؤمنون: 15 – 16].

يقوم التعبير القرآني في الآيتين على بنية نسقية منتظمة تُضمّ ثنائية (الموت والبعث) المتعارضة؛ فالطباق الحقيقي الإيجابي يُلمح في بديع التناسب والتنسيق المنسجم مع الدلالة السياقية بين الاسم المؤكد بـ (إنَّ + لام التوكيد) في (لميتون) الدّال على صفة الثبوت، غير مُقيد بزمنٍ من الأزمنة، فهو أشملُ وأعمُّ وأثبت[1]، وبين صيغة الفعل المضارع المُقيدة بزمن التجدد والحدوثِ في (تبعثون) والمؤكد بـ (إنَّ) فقط؛ لأن الإنسان في الدنيا يسعى غاية السعي كأنه مُخلّد، فجاءت جملة البعث إبرازاً لصورة المقطوع به الذي لا يمكنُ فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً[2]، وبما أن صفة الموت تحمل دلالة السكون والجمود جاءت صيغة الثبوت مُعبرة عنها في حين أن البعث حركة وحياة يلائمها الحدوث والتجدد في الصيغة التعبيرية، ((وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاقٌ وراء آفاق، من التناسق والاتساق : فمن نظمٍ فصيح إلى سردٍ عذبٍ إلى معنى مترابط إلى نسقٍ متسلسل))[3].

وتثبت تلك المفاهيم الإجرائية لآلية التطابق الدلالي القيمة العظمى لهذا الفن، وأثرِه في النص القرآني بما يحدثهُ من تلاؤم وتكافؤ وتناسب، فكان مدار اهتمام كثير من البلاغيين واللغويين القدماء والمحدثين، حتى أن بعضهم عّده ظاهرة أسلوبية ومعولاً عليه في دراسة النظم عند عبد القاهر الجرجاني؛ لوصفه بأنه ((نظيرٌ للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيثٍ وُضِع، عِلَّةٌ تقتضي وضعه

---

(1) ينظر : معاني الأبنية في العربية : 9.

(2) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 3 / 88.

(3) التصوير الفني في القرآن : 142.

هناك، وحتى وضع في مكانٍ غيره لم يصلُح))[1]؛ فهو بذلك معيار من المعايير الدلالية والتركيبية المهمة التي تستندُ عليها فكرة الإعجاز والبلاغة القرآنية.

ب- الطباق المجازي / العدول عن الدلالات المتضادة بذكرِ لوازمها

أفرز مفهوم التضاد والتناقض بين التراكيب اللغوية المتعارضة لفظاً ومعنى على جهةِ التغاير والتحول والعدولِ، نوعاً آخر من المطابقةِ أطلق عليه البلاغيون مصطلح (الطباق الخفي) أو الطباق المجازي، وهو خلاف الطباق الظاهر الحقيقي، الذي لا يُدرك طرفاهُ إلاَّ بعد تأمل دقيقٍ وإعمالِ فكر متأنٍ، فيكون أحد الطرفين أو كلاهما غير حقيقين مستعملين مجازاً، كالسببية واللزوم؛ لذا فقد ألحقه بعضُ البلاغيين بالطباق، وعرفوه بأنه الجمع بين أمرٍ وما يتعلق بمقابلهِ، من ذلك قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[يس: 15 – 16]**.

في سياق هذه الآيات جاءت المغايرة في المطابقة والتضادِ على جهة الحقيقة دون المجاز فهي إذن من إيهام التضادِ، نظراً لخفاءِ التضادِ، فقولهُ تعالى : ﴿[illegible]﴾ يستلزمُ الصدق المُضادِ للكذبِ في قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ فكان العدول عن دلالة الآية المفترضِ قوله فيها : (ربّنا يعلم إنا لصادقون)، وقد جمعَ هنا بين الكذبِ وبين ما يتعلق بمقابلهِ، وهذا يكشف مدى القدرة الإلهية الكامنةِ في النص القرآني التي نستشعرُ فيها الجلال الباطني قبل الجمال الظاهري في سوقِ الانساق اللغوية المختارة بدقةٍ ونظامٍ مُتقن يُحدث أثراً حيوياً متصاعداً بالصورةِ والايقاع كُلٌّ في موضعهِ الملائم له.

(□) دلائل الإعجاز : **49**.

ومثيله قوله تعالى : ﴿□□□□□ □ □□□□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□ □□□□□□□□□□□ □□□ □□□ □□□ □﴾[نوح:25].

يبدو أن المفارقة البديعية الأسلوبية في هذه الآية ليست ظاهرة الملامح، فالمطابقة تتمثل في التنويع اللفظي، وما يرافقه من الحقيقة في إبراز الجوانب الجمالية؛ إلاَّ أنها في الإطار المجازي أكثرُ رونقاً وجمالاً في نسقِ الآيةِ التي جمعت بين الإغراقِ وما يتعلق بالإحراقِ وهو دخول النارِ، إذ إنَّ دخول النار يتسبب عنهُ الإحراق المقابل للإغراق، وبذلك مُنحت الآية دلالةً ترتبط بالعدل الإلهي، وقوبلت تلك الدلالة بمعنى الدخول في النارِ والاحتراق فيها؛ لكن اللافت في هذه المطابقة، خفاءُ التضادِ، فاللفظ الصريح في صيغة الفعل (أُغرقوا) جِيئَ به متقابلاً ومُضاداً مع لفظٍ آخرٍ يدلُ على أحدِ لوازم اللفظ المقابل لعلاقةِ السببيةِ في قوله تعالى : ﴿□□□□□□□□□□□ □□ □□ □□□ □﴾، وهذا يعني أن إدخال النارِ ليسَ ضد الإغراقِ في المعنى، فالإغراق يقتضي الإحراق مُقابلاً لهُ؛ لكن ناب عن الإحراقِ (أحد لوازم الإغراق) بالدخول في النارِ، وقد عبر ابن منقذ (ت 584هـ) عن هذا النوع من الطباقِ بقوله : ((وهذهِ أخفى مُطابقةً في القرآن))[1].

في حين حدد باحثٌ معاصر موقع هذا النوعِ من الطباق في منطقة الانحرافِ والعدول عن النسب السائدة بين الالفاظ والعلاقات العرفية بينها وأطلق عليها تسمية (المطابقة المخالفة)[2] مما يؤكد استيفاء الطباق للمعاني المقصودة وتقوية الدلالة فيها تحقيقاً للتوازن وفاءً بالمعنى.

ولو تأملنا قوله تعالى في وصفِ رسولهِ الكريم ﷺ وأصحابهِ : ﴿□□□□□□□□ □□□□□□ □ □□□ □ □□ □ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □ □□□□□□□ □□□ □□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □ □□□□ □□□□□ □□ □□□□ □

(□) البديع في نقد الشعر : 36.

(□) أكد الدكتور منير السلطان أن المطابقة المخالفة : هي صورةٌ من صور مقاربة الشيء بما يقرب من مضادهِ، إذ ليس من الضروري أن يكون الطباق فيها محضاً، ينظر : البديع تأصيل وتجديد : 114.

[illegible]

[illegible] ﴾[الفتح:29]

يبدو للمتأمل في الآيةِ أول الأمرِ أن التضاد قائمٌ بين لفظتي (أشداء ورحماءَ) وبالنظرِ الدقيقِ الفاحصِ يتبينُ أن الأثر المعنوي لهذهِ الألفاظ هو القائد إلى نوعِ البديعِ فيها، بما يحققهُ من إيضاح للدلالةِ، وتأكيداً للمعنى عن طريق المقارنةِ بين الضدين، فتصور أحد الضدين تصورٌ للآخرِ، حتى يكون الذهن مُهيأً ومستعداً لاستقبال النقيضِ أو المخالفِ.

فالدلالة الحقيقية في هذه الآية تقتضي أن الشدة لا تضاد الرحمة؛ بل اللين هو المقابل للشدةِ، وبما أن صفة الرحمة أثرٌ ملموس للعلاقة بينها وبين اللينِ فقد عَبَرَ النظم القرآني في هذا الموضع بالرحمةِ لاقتضاءِ المقام وتطلّب السياق، فمقام وصفِ أصحابِ الرسولِ الكريم محمد ﷺ يستدعي نعتهم بالرحمةِ؛ لأنها من أعظمِ الصفاتِ، فهي مأخوذٌ من اسمهِ تعالى (الرحمن الرحيم)(1). فَعَدَلَ بذلك عن اللينِ بذكرِ أحدِ لوازمهِ وهو الرحمة.

والملمحُ الأسلوبي في هذا التعبير القرآني يُرشدنا إلى تساؤلٍ منطقي يستوجب إيجاد ضرورة لاتباع قولهِ ﴿[illegible]﴾ في وصفهِ لأصحاب الرسول ﷺ بقولهِ ﴿[illegible]﴾، وَلِمَ لم يكتفِ بالوصفِ الأول؟

عَمَدَ التعبير القرآني إلى الوصفين من باب الاحتراسِ والتكميل(2)، فالشدة المطلقة في كل الأحوال عيبٌ لدلالتها على الغلظة والقسوة مما يوهم مناسبة الوصف

(□) ينظر : أسماء الله الحسنى، دراسة في البنية الدلالة : 138.

(□) الاحتراس والتكميل مصطلحان بلاغيان في علم المعاني، ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 62/1 و340/2.

وتمكنهِ من الموصوفِ، فجيئ بوصفِ الرحمةِ بعد ذلك مباشرةً؛ دفعاً للتوهم وإفادةً لجمعهم الضدين على السواءِ، وبذلك فقد حازوا طرفي العظمة[1].

ومنهُ قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[القصص:73]**.

تأتي المطابقة في هذه الآية مولداً دلالياً، يجمع نِعمتين من نعم الله تعالى لعلةٍ سببية، توضح جعلَ الزمانِ ليلاً ونهاراً، فالليل سكنُ المخلوقات، والنهارُ سعيها وتحركها، ولما كان ابتغاءُ الفضلِ يستلزم حركةً مُضادةً للسكونِ، عَدّل عن الحركةِ إلى ابتغاءِ الفضلِ؛ ولأن الحركةَ هنا إصلاحاً لا إفساداً، آثَرَ التعبير القرآني (ابتغاءَ الفضل) وربطهِ بزمن النهارِ، في حين كانت العلاقة السببية اللازمة ظاهرة في اقترانِ الليل بالسكون المُضادِّ للحركةِ.

وقد دعانا الله تعالى إلى تأمل نعمتي الزمانِ (ليلاً ونهاراً) في قولهِ ﴿[illegible]﴾ **[القصص:71 – 72]**.

---

(1) مثيل ذلك قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿[illegible]﴾ [المائدة:54].

فكيف يكون حال الكون لو كان الزمان نهاراً أبدياً إلى يوم القيامة أو ليلاً سرمداً إلى يوم القيامة ؟

نلتمسُ التضاد في طباق الإيجاب بين اسمي الزمان (ليلاً – نهاراً) إذ يحمل كل واحدٍ منهما دلالةً متباينة ترتبطُ بالسكونِ والحركةِ، ومنه قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[الفتح:14]**، لا ينطوي أثر التضادِ الأسلوبي في هذهِ الآية تحت المقابلة الصريحة للألفاظ؛ لأن التعذيب لا يُقابل المغفرة؛ ولكن على تأويل أن التعذيب صادرٌ عن المؤاخذةِ التي هي ضد المغفرة، أو عدولاً عن اللفظ الحقيقي باعتبار أصلِ معناه، كما في قوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[الحج:4]**، فالطباقُ الخفي يظهرُ من دلالة السياق، أي : أن من يتولى الشيطان فإنهُ يُضلهُ عن طريق الحقّ، ويقودهُ إلى عذابِ السعيرِ، فلا يُقابلِ الضلالة بهذا الاعتبار؛ ولكن لفظهُ يُقابلها في أصلِ معناه.

فالمعاني المتضادة إذا ظهرت في الألفاظ المتضادةِ كان الطباق واضحاً جلياً يسهل الوقوف عليه، وهذا لا يتمّ إلاَّ في التضادِ القائم بين المفردات لفظاً ومعنى، أما إذا جاء التضادُ معنوياً بالتقابل بين الشيء وضده في المعنى، فهو من (الطباق الخفي)، وسواءٌ كانت هذه المعاني المتضادة ناتجة من : لفظين مفردين أو مركبين أو لفظٍ مفردٍ وتركيبٍ؛ بل قد يتجاوز ذلك إلى الحروفِ والظروف، مما يجعلها بحاجةٍ إلى فطنةٍ ودقةٍ في التأملِ للوصول إليها ومعرفةِ دلالاتها.

ومن الدلالات الأسلوبية في المطابقة (اختلافُ الضدّين إيجاباً وسلباً) بالجمع بين فعلين مصدرهما واحدٌ اتفقا في اللفظ والمعنى، الأول مثبت والآخر منفي، أو بين أمرٍ ونهيٍ، ومن الشواهد القرآنية على ذلك قولهُ تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[الأنعام:103]**.

كُلُّ من يتمعن في مفهوم المطابقة في التعبير القرآني، يُدرك أنه مرتكزٌ على أئتلافِ اللفظِ مع المعنى، وفقاً لأنساقٍ تركيبية قُسمت أدقَ تقسيمٍ لتوضع في مكانها الملائم، تتوخى التأثير المطلوب في النفس، فالمطابقةُ المعنوية في هذه الآية لا تنحصرُ في مظهر الطباق البلاغي الصرف، ولا سيمّا حين ذهب عددٌ من المفسرين إلى ظاهر العبارة في قوله تعالى : ﴿□□ □□□□□□□□□□□ □ □□□ □□□□□□□□ □□□□□□□﴾ : بأنها انتفاء رؤية الإنسان لله عز وجلّ؛ بل في أثر الموازنة التي تُحدثها التراكيب المثبتة والمنفية والنصِ على المطلوب منها وهو إحاطته – سبحانه وتعالى – بكلِّ شيءٍ علماً ورؤيةٍ.

وإذا أوضحنا ابتداءً أن الرؤية في اللغة شيء والإدراك شيء آخر[1]، واستحضرنا السياق التقابلي المقترن بصفة الله وهو (اللطيف الخبير) أدركنا أن الله – تعالى– يتجلى لعباده الصالحين في الدنيا والآخرة، بتجلياتٍ كثيرة، ولكنَّ الابصار عاجزة عن الإحاطة بنورهِ؛ لأنهُ يبهرُ العينين، لذلك نفى الله تعالى إدراكهُ بالبصرِ، فلطفهُ بالنبي موسى عليه السلام هو الذي جعلَ كليمهُ ينظر إلى الجبلِ الذي خَرَّ صعقاً من قُدرتهِ وعظمتهِ لقوله تعالى : ﴿□□□□□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□ □ □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□ □ □□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□ □□□□□ □□□□□□□□□□□□□ □ □□□□ □□□□□ □□ □□□ □□□□ □□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □ □□﴾ **[الأعراف: 143]**، ولا شيءَ أدلَّ على ذلك من أننا لا نستطيع إدامة النظرِ إلى الشمسِ مع قدرتنا المباشرة على رؤية نورها، ومَن جَرّبَ النظر المستمر إليها سُرعان ما ينكسرُ بصرهُ، وهذا ما يوحي به السياق القرآني المنفي ﴿□□ □□□□□□□□□□□ □ □□□ □□□□□□□□ □□□□□□□﴾ : أي لا تُحيط بهِ[2].

في حين نجد صيغة الإثبات بقوله تعالى ﴿□□□□□□□ □□□□□□□□□ □ □□□ □□□□□□□□﴾ جاءت دلالة على مستوى

---

(1) ينظر : الفروق اللغوية : **104**، دقائق الفروق اللغوية : **189**.

(2) إزالةِ الشُبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات : **68**.

المطابقة السلبية التي هي نقيضُ صيغة النفي ومما يُثير الانتباه في هذا التعبير القرآني لفظتي (اللطيف) و(الخبير) جاءت الأولى (اللطيف) مناسبة للنسق التقابلي ﴿[illegible]﴾ مُثبِتةً هذا التركيب ومُبرزة أثرها التلاؤمي معهُ، في حين أن لفظة (الخبير) تناسبت مع السياق القرآني ﴿[illegible]﴾ لإحاطته سبحانه وتعالى بُكلِّ شيءٍ علماً ورؤية، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿[illegible]﴾ **[الشعراء:61]**.

إن إيراد هذه الشواهد القرآنية ليست دليلاً على أن طباق السلب محصورٌ في الأفعالِ دون الاسماء كما ذهب بعض البلاغيين[1] إذ إننا لا نؤيد هذا الرأي، بل نؤكد عدم صحتهِ؛ لأن الأسلوب الطباقي قد يكون بين اسمين أو بين فعلٍ واسمٍ من مادةٍ واحدةٍ، أحدهما مثبت والآخر منفي؛ لأنه رأي جمهور البلاغيين من جهةٍ، ولورود الشواهدِ الخاصة به في القول شعراً ونثراً، وفي التعبير القرآني على وجه الخصوص من جهة آخرى[2]، كقوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[الحج:5]**، حيثُ ورد التقابل بين صيغتي (مُخلقةٍ) و(غير مخلقةٍ) وقوله تعالى : ﴿[illegible]﴾ **[البقرة:8 – 9]**، صيغ المطابقة في

(□) ينظر : الإيضاح : **257**، بغية الإيضاح : **4 / 7**.

(□) ينظر على سبيل المثال : سورة البقرة : **179**، **225**، سورة المائدة : **116**، سورة الأعراف : **3**، سورة إبراهيم : **22**، سورة الروم : **6–7**، سورة الشعراء : **36**، سورة الزمر : **9**، سورة فاطر : **122**، سورة الانفال : **17**، سورة القيامة : **1–2**، سورة الرعد : **14**، سورة الإسراء : **23**.

قوله (آمنا) و(وما هم بمؤمنين)، وقوله: (يخادعون) و(ما يخدعون)، ويمكننا أن نقف وقفةً قصيرة نستشعر فيها أصالة البديع في مظهر المطابقةِ ودلالاتها؛ وفق آلية التناسب والتوازي بين الأنساق اللغوية والبلاغية من جهةِ اللفظِ والمعنى في قوله تعالى : ﴿□□□□ □ □□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □﴾ **[الأنفال:17]**.

كأننا أمام جدلية ضدية مُحيرة، يُخرجنا منها ابن جني (ت 392هـ) في معرضِ حديثِهِ عن اللفظين اللذين لهما معنىً واحد؛ ولكنهما متضادان في الظاهر، حين يقول : ((ينبغي حينئذٍ أن ينظر إلى الأليق بالمذهب، والأجرى على قوانينهِ فَيُجعل هو المراد المعتزم منهما، ويتأول الآخر إن أمكن))[1]، فظاهرُ الآية إثباتُ أحد القولين ونفيٌ لما قبله، مما يوحي أن وجه الجمع بين الصيغتين (وما رميت) و(رميت) الإثبات والنفي؛ لأنه لما تمكن الرسول ﷺ من الرمي وأقدرهُ الله تعالى عليه وسددهُ لهُ، وأمرهُ بذلك، فأطاع، نُسب حينئذٍ أي : القربُ إلى الله تعالى وإن كان للنبي ﷺ مكتسباً مُشاهداً منهُ[2].

ويتضحُ للبحثِ من خلالِ ما سبق أنه لا يشترط في مفهوم التطابق الالتزام بمبدأ التجاور اللفظي والتركيبي؛ وإنما الشرط التناسب الدلالي للألفاظ المتضادة، فقد أكد التعبير القرآني أن جمالية الطباق ذات تأثير دلالي يرتكز على الائتلاف بين اللفظ والمعنى؛ وفقاً لعناصر لغوية شمولية تجمع كل المتغيرات في إطار الضدّيةَ والنقيض والتضايف.

ثانياً : طباقُ التدبيج :

ومما يلحق بأسلوبِ الطباقِ؛ وفقاً لعلاقاتٍ منطقية يحكمها التضاد والتناقض، مظاهر لها أثرها الأسلوبي في الكشف الدلالي عن الألفاظ وتعلقها بالمعاني

---

(1) الخصائص : **1 / 204**.

(2) ينظر : المصدر نفسه : **1 / 205**.

المقصودة، أطلق عليها البلاغيون مصطلح (طباقُ التدبيجِ)، والتدبيجُ في اللغة : التزيين، فهو اسمٌ مشتقٌ من دَبَّجَ الربيع الأرض إذا زينها بألوان النباتِ والزهر[1]، أو مشتق من الديباج، وهو نوعٌ ممتازٌ من أنواعِ الحرير، أما في الاصطلاح البلاغي : فهو أسلوبٌ بديعٌ خاصٌ يذكر الألوان التي يقصدُ بها المتكلمُ الكناية، والتورية عن أشياءٍ من مدحٍ أو وصفٍ أو هجاءٍ أو نسيبٍ أو نحو ذلك[2].

وقد أفرد بعضُ علماء البلاغة لهذا النوع من الطباقِ بحثاً مستقلاً عن باب المطابقةِ؛ إلاَّ أننا نميلُ إلى الرأي القائل بتصنيفه توافقاً مع من عدّهُ من أقسام الطباق وصورهِ؛ لما بين الألوانِ من التقابل، فالألوانُ في الكلامِ كألوانِ الزهرِ في الحدائقِ، والعلاقة التقابلية قائمة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، ويمكن تقسيم هذا النوع من الطباق إلى قسمين :

الأول : تدبيجُ الكناية :

يرى الأستاذ الدكتور إياد عبد الودود الحمداني[3] أن الجمع بين الكناية والطباق في مصطلح (طباق التدبيج) تأكيدٌ على أن العرب يمتلكون نظرة شمولية بخلاف ما يُدّعى عليهم، وأن في هذا المصطلح وغيره رؤية فنية فاعلة وواضحة.

وقد أطلق أحد الباحثين المعاصرين[4] مصطلح (تحسين التحسين بالمطابقة) على هذا اللون من الجمعِ بين المتضاداتِ، وهو بذلك اقترانٌ للمطابقةِ بلونٍ بلاغي آخر، قد يكون من علم البيان، أو من علم المعاني، أو من البديع نفسه، مُعتمدين في ذلك على أن الكناية لون بلاغي من علم البيانِ، في حين أن التورية لونٌ بلاغي من علم البديعِ.

ومن تطبيقات تدبيج الكناية في التعبير القرآني قوله تعالى :

﴿ [illegible]

(□) ينظر : لسان العرب : مادة (دَبَجَ).

(□) ينظر : تحرير التحبير : 532/4، وبديع القرآن : 242/2، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 2 / 118.

(□) ينظر : الكناية، محاولة لتطوير الإجراء النقدي : 21.

(□) ينظر : البلاغة الاصطلاحية : 290.

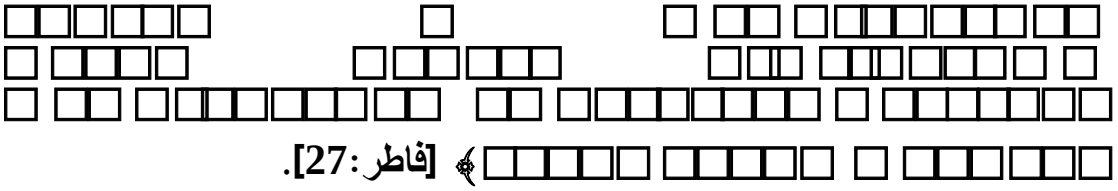

[illegible] ﴾ [فاطر:27].

من أوجه البلاغة البديعية المعجزة في هذه الآيةِ إيثار الوحدة التنوعية بين الألوان المتضادة في التوافق الشامل للشكل والمضمونِ، وذلك بعملية الجمع بين الألفاظ الثلاثة المتطابقة في (بيض وحُمر وسود)، وهذه الألوان المذكورة لا تخرج عنها ألوان الجبال (فالجُدد البيض) : كنايةٌ عن سيولةِ طُرقها، و(حُمْرٌ) كناية عن صعوبة السير فيها، و(غرابيبُ سُود) كناية عن وعورتها، فحصل التدبيجُ باجتماع هذهِ الألوان، فالكناية هُنا جاءت دلالةً على المشتبهِ والواضحِ مِن الطُرقِ؛ لأن الجادة البيضاء هي أوضحُ الُطرقِ وأبينها، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء التي كأنها في الخفاءِ والالتباس ضد البياض في الظهورِ والوضوحِ، فالطرفُ الأعلى في الظهور هو البياض، أما الطرف الأسفل فهو الخفاء ويُكنى عنه بالسوادِ، والأحمرُ بينهما على حُكمِ وضع الألوانِ في التركيبِ(1)؛ لذا قيل : رَكِبَ بهم المحجَّة البيضاء، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء.

وفي هذا التعبير يتعاضدُ التقابل الدلالي مع التوازي التركيبي على المستوى الصوتي الذي أحدثهُ (التنوين) في الصيغ (جُددٌ) و(بيضٌ) و(حمرٌ) و(مختلفٌ) و(سودٌ)، مُشكِلاً ملمحاً بارزاً يلفت الانتباه ويشدُّ الأذهان؛ لمتابعة الألفاظِ والتراكيب التي تُحقق مُتعةً وفائدةً دلالية في آنٍ معاً، وقد عدَّ ابن رشيق القيرواني (التوازي الصوتي) ضرباً من ضروب المقابلة حين قال : ((ومن المقابلة ما ليسَ مخالفاً ولا موافقاً إلاَّ في الوزن والازدواج))(2)، ومن بَديع الكناية قوله تعالى:

﴿[illegible]

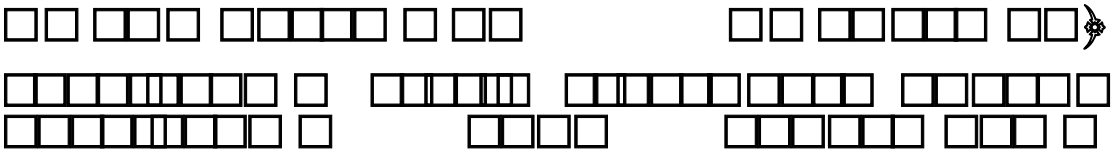

(1) ينظر : دراسات منهجية في علم البديع : 44، وشي الربيع بألوان البديع : 27.

(2) العمدة : 309/2.

﴿□ □□□□□□□□□ □ □□□□ □□□□□□□□□ □﴾ [البقرة:187].

فالخيطُ الأسود كناية عن ظلمةِ الفجر؛ لأن المعنى هو كُلوا وأشربوا إلى طلوعِ الفجر، وأمسكوا عن الطعام والشراب إلى غروب الشمسِ، فجيء بالكنايةِ قَصَدَ تقوية الدلالةِ في بيان المدةِ الزمنية[1].

ومثلهُ قوله تعالى : ﴿□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□

□□□□□□□□□□ □□□□□□ □ □□□□□ □

□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□

□□ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□□

□□□□□□□□ □□ □ □□□□□□□ □□□□ □□□□ □

□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□ □

□ □□□□□□□ □ □ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□

□□□□ □□□□□□□□ □ □□□ □□□□ □□□□ □□ □ □

□□□ □□ □□□□ □□□□﴾ [آل عمران:106 – 107]، فبياضُ الوجوهِ كنايةٌ عن الفرحِ بالجنةِ؛ لإيمانهم، وسواد الوجوهِ كنايةٌ عن سوءِ العاقبةِ والمنقلبِ، ودخول النارِ لكفرهم، وتقابل الألوان على هذهِ الصورةِ يُسمى تدبيجاً، زيادةً على ما في التعبير من حُسن التقسيم.

الثاني : تدبيج التورية[2] :

في هذا النوع من طباق التدبيج يورى بالألفاظ المعبرة عن الألوان بصيغٍ دلالية غير ظاهرة على سطح الكلامِ تأتي مذكورةً بقصدِ التورية بمعنييها القريب

(□) ينظر : إعجاز الكلمة في القرآن الكريم : 160.

(□) لم يُسجل هذا النوع من التدبيج حضوراً فاعلاً في الدرس البلاغي على عكس النوع الأول (تدبيج الكناية).

والبعيد، والمراد بذلك هو المعنى البعيد؛ فالتورية إذا جاءت في لونٍ من الألوان كانت تدبيجاً، وهي بذلك مظهرٌ من مظاهر الحُسن التي نسعى إلى تلمس مواطنها، جراء قيمتها العدولية، المتولدة عن الطبعِ والعفويةِ، حين توظف بآلية يتمُّ فيها القفز على وعي المتلقي، فتكون بذلك حقيقة إجرائية في بناء أساليب القولِ وفقاً لعنصرِ التناسب البديعي.

ثالثاً : طباق الترشيح[□] :

من الأمور البديهية أن الضدَّ أقربُ خطوراً بالبالِ عند ذكر ضدهِ، مما يجعلُ علاقة التضاد التي تربط أجزاء القولِ فطرية تشيعُ في أساليب العامةِ والخاصةِ، نظراً لكثرةِ الأضدادِ في مظاهر الحياة ومشاهد الكونِ، وصفات الخلائق على اختلافِ ألوانها، وبناءً على ذلك أكد البلاغيون[2] أن مجرد الجمع بين المتضادين في الكلام من الأمور السهلة؛ لذا ينبغي ترشيحُ الطباق بلون آخرٍ من ألوانِ البديعِ ومظاهرهِ التي تُضفي على الكلام حُسناً لفظياً ودلالةً معنوية، وهذا يعني إكساب فن الطباق نسق لغوي متوازٍ ومتلائم مع الوظيفة والهدف بما يختزنهُ من تكثيفٍ دلالي ((قائم على نظام المجاورة))[3]، من ذلك قوله تعالى : ﴿□□□□ □ □□□□ □□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□□ □□□ □□□□□□ □□□ □﴾ [الرعد:12].

فَسَّر الزمخشري معنى الخوف والطمع بـ((أن وقوع الصواعق يُخاف عند لمع البرقِ ويُطمعُ في الغيث))[4]، قال أبو الطيب[5] :

فتى كالسحابِ الجُونِ تُخشى وتُرتجى   يُرجى الحيا منها وتُخشى الصواعقُ

(□) الترشيح في اللغة معناه التقوية، ينظر : لسان العرب : مادة (رَشَحَ)، ومن المدلول اللغوي جاء المفهوم الاصطلاحي، فترشيح الطباق يعني تقويته بوجود لونٍ بلاغي يزيد معنى الطباق وضوحاً ويكسبهُ حلاوةً، ينظر: بديع القرآن : 103/2، علم البديع (عبد العزيز عتيق) : 124.

(□) ينظر : خزانة الأدب : 1 / 87.

(□) المصطلح النقدي في كتب الإعجاز القرآني : 159.

(□) الكشّاف : 2 / 508.

(□) ديوان أبي الطيب المتنبي : 2 / 346.

فقد اقترنت ألفاظ الطباق في التعبير القرآني بين الخوف والطمع، بلونٍ بلاغي بديعي وهو صحة التقسيم، إذ ليسَ في رؤيةِ البرق إلاَّ الخوفَ من الصواعقِ، والطمعَ في الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين.

ومن صورِ ترشيح الطباقِ في التعبير القرآني قولهُ تعالى : ﴿□□□□□ □□ □ □□□□□□□ □□□ □ □□□□□□□ □□□ □□□□□□□ □□ □ □□□□□□□ □□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□﴾ **[آل عمران:27]**.

تضّمنت الآية الكريمة أنماطاً متعددة من الطباق، منها : ما هو بين الأفعالِ (تولجُ) و(تخرج)، ومنها : ما هو بين الأسماء (الليل) و(النهار) و(الحي) و(الميت) وقد أُثرت هذه الأنماط الطباقية بشقيها الأسمي والفعلي مع ذكر مظهرٍ بلاغيٍ قائمٍ على (العكسِ والتبديلِ)[1]، في قوله تعالى : ﴿□□□□□ □□ □□□□ □ □□□□□□□ □□□ □□□□□□ □□□ □□□□□□□ □ □□□□□□ □□□ □□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□﴾**[سورة فاطر:من الآية 13]**، وقوله تعالى : ﴿□□□□□□□ □ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□□□□□□ □ □□□□□□□ □ □□□□□□□□﴾ **[سورة الأنعام: من الآية 95]**، فكلا المعنيين متكاملان في دلالالتهما، والمعنى المقصود واضحٌ بعكسهِ أو تبديلهِ بين طرفي السياق، كما اقترن التعبير القرآني بمبالغة التكميل التي تتناسب مع القدرة الإلهية؛ ففي سياق العطفِ بقولهِ تعالى : ﴿□□□□□□□□□ □□ □□□ □□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□﴾ دلالةٌ على مبالغةِ التكميل المشحونة بقدرة –الله– على أفعال الرزق بغير حسابٍ لمن يشاءُ من عبادهِ، ومثلهُ قولهُ تعالى : ﴿□□□□ □ □□□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□□﴾

---

(1) يسمى هذا اللون من البديع بـ (العكس المعنوي) : وهو أن يؤتى بأجزاء تالي الكلام على عكس ما جاء في أجزاء مُقدَّمهِ، مؤدياً كل منها المعاني المقصودة، ينظر : البلاغة العربية (الميداني) : **2 / 440**.

□□□□□ □□□□□□□□□ □ □□□□□□□□
□□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□
□□□□□□□□□□□ □□□□ □□□□ □ ﴾ [آل عمران:26].

يتضحُ مما سبق أن هذا النوع من الطباق يكشفُ تجاوز مستوى الدلالة الطباقية حدود الجملة الواحدة مما أحدث قوةً سابكة (Cohesive force) بين الجمل المتجاورة وهذا التجاور هو المطلوب، زيادة على عدم التقيد بالتعاقب المباشر بين الجملةِ وأطرافها المتبادلة والمتعاكسة، مما يوسع المساحة التي يُحدثها الأثر الدلالي للطباقِ سبكاً، فيغدو بذلك مؤشراً سطحياً إلى وجود ترابطٍ وتناسبٍ يكسبه بُعداً جمالياً إضافياً (كالبعد الصوتي) مثلاً، الذي يقتضي الموالاة أو التعاقب بين الأطراف السياقية، إبرازاً وتجسيداً للتوازن الذي يحتويه.

وأمثلةُ هذا النوع من ترشيح الطباق في التعبير القرآني كثيرة لا مجال لحصرها[1].

(□) ينظر على سبيل المثال : سورة القصص : **73**، حيث رُشح الطباق بفن اللَّفِّ والنشر، وفي سورة النساء : **83**، اقترن الطباق بالجناس بين (الأمر والأمن)، سورة الشمس : **1 – 8**، جاءت المطابقة مُرشحة بصحة التقسيم، سورة المعارج : **6 – 7**، اقتران الطباق بمراعاة الفاصلة في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾، وسورة فاطر : **27**، رُشحت المطابقة بحسن التقسيم، وسورة آل عمران : **106 – 107**، جمعت الطباق مع صحة الأقسام.